الهندسة الاجتماعية مقابل النزعة العالمية في العلوم الاجتماعية (دراسة فلسفية معاصرة)

م. د. باسم راجح جمال الدين الالوسي
كلية الآداب/ قسم الفلسفة

التمهيد

يطلق مفهوم العلم مجازاً على ما يسمى ((بالمعرفة العلمية)) ، ويقصد منها في معناها العام أنها لفظ كلي لا يدل على علم مجرد بالذات بقدر ما يعني عدة خصائص أو صفات مشتركة في كل نشاط عقلي إنساني ، تماماً كما تعني كلمة (إنسان) عدة خصائص أو صفات تنطبق على بني الإنسان ، ومن الطبيعي أن ينصب اهتمامنا في الأساس على تلك العلوم الطبيعية والرياضية التي تتناول الظواهر الجزئية، وتدرسها بمناهج علمية لتضع لها قوانين تفسرها تفسيراً عقلياً أو منطقياً ، وتعد الفيزياء المعاصرة بفروعها المعاصرة أعلى مراحل تطور العلم ، من حيث المنهج والنظرية إلى حد سواء ، ومن ثم يعول عليها كثيراً في استخلاص الأمثلة والدلائل عند الحديث عن النموذج المثالي للعلم الطبيعي .

أما ((الدراسات الإنسانية أو الاجتماعية)) (*) ، التي تتناول أحوال الإنسان فأنها عادة لا تندرج تحت العلوم الاستقرائية أو الاستنباطية إلا إذا استخدمت مناهجها العلمية نفسها، لذلك نزعت بعض العلوم الإنسانية (كعلم الاجتماع) (**) إلى محاكاة العلوم الطبيعية باصطناع مناهج تجريبية واستخدام أدوات وأجهزة للبحث ، ويرد بعضهم هذا الاتجاه إلى الارتقاء بالعلوم الإنسانية ليصبح لها من النفع في المجال العلمي وخدمة البشرية ما للعلوم الطبيعية والرياضية من سيادة وتفوق في فهم الظواهر الطبيعية التي اكتشفت ، وذلك انطلاقاً من الاعتقاد بأهمية المنهج التجريبي. لذلك كانت الاشكالية هي ان العلوم الاجتماعية حاولت ان تحاكي المنهج الفيزيائي التجريبي مما ادى الى ظهور النزعة التعالمية وهي صادرة عن فهم خاطئ للمناهج الطبيعية وهي متأثرة بالتفكير الكلي النزعة . فكانت المحاولة لحل هذه الاشكالية من خلال الاشارة الى اهمية المنهج العقلاني النقدي المتمثل بالهندسة الاجتماعية مقابل النظرة التعالمية .

اولاً : النظرة العقلانية للعلوم الاجتماعية .

إنّ نجاح الفيزياء المعاصرة مع غاليلو ونيوتن بصورة تفوق التوقع ، وكذلك إحراز العلوم البايلوجية منذ عهد باستور نجاحات موازياً لنجاح الفيزياء تقريباً كل هذه أدت إلى اهتمام مجموعة من الباحثين الاجتماعيين اهتماماً عظيماً بمشكلات الطريقة التي تحاكي طرائق العلوم الأكثر ازدهاراً ولا سيما الفيزياء ، لذلك كانت محاولة مستمدة لنسخ الطريقة التجريبية للفيزياء في العلوم الاجتماعية . ( ) وقد ينسب نشوء الطريقة التجريبة أو المذهب التجريبي Emperisme في علم الاجتماع إلى العشرينات من القرن العشرين ، إذْ ظهرت في تلك الأعوام في الولايات المتحدة الأمريكية ، أعمالاً تمثلت فيها الخصائص النموذجية والمميزة لعلم الاجتماع التجريبي ... وقد كانت هذه الطريقة في البحث جديدة بالنسبة لعلم الاجتماع إذْ اتبعت في علم الاجتماع التجريبي إجراءات للبحث تشمل .

الملاحظة المقابلة . (٢) الاستمارات . (٣) الوثائق . (٤) والصياغة . (٥) المعالجة الاحصائية للمواد المجمعة . (٦) وضع المدارج والخطوط البيانية وغيرها . (٢) وإذا نظرنا نظرة تاريخية حول علاقة علم الاجتماع بالمنهج الاستقرائي لاستطعنا الزعم ، بأن اللبنة الأولى لبناء علم الاجتماع يقوم على منهج تجريبي نجده عند فيلسوف التاريخ العربي (ابن خلدون) (*) ، إذْ أن البحث في ظواهر العمران البشري، ولاجتماع الإنسان في رأيه ، يتعين أن ينهض على أساس استقراء المحسوس من الوقائع ، بدلاً من الاستدلال بغير سند من الملاحظات والمشاهدة ... وكذلك نجد علاقة علم الاجتماع مع المنهج الاستقرائي على أيدي الفيلسوف الفرنسي (أوجست كونت) (*) ومدرسته ، فمن خلال الفلسفة الوضعية التي صاغها أوجست كونت ، كان الإطار لعلم الاجتماع يستند أساساً إلى الفكرة التي مؤداها أن المفهومات تابعة أو مشتقة من الوقائع ، وأن الظواهر

الاجتماعية خاضعة للقوانين ، ومن جهة أخرى وصف (كارل ماركس) تحليله الاشتراكي للقرن التاسع عشر بأنه (تحليل علمي) . (٣)

لقد أدت محاكاته العلوم الاجتماعية للمنهج الفيزيائي التجريبي إلى ظهور النزعة (التعالمية) (**)، وهي صادرة عن فهم خاطئ للمناهج الطبيعية، وهي متأثرة بالتفكير الكلي النزعة ، فالاعتقاد بأن العلوم الاجتماعية موكلة بالكشف عن قانون تطور المجتمع حتى يتنبأ بمستقبله وهذا الاتجاه هو ما يطلق عليه بوبر (بالمذهب التاريخي) . (٤)

هناك ملاحظة أود أن أشير إليها، هي عند تناول لعلم الاجتماع ، كان القصد منه علم الاجتماع المعرفة ، والذي يطلق عليه بسيسلوجيا المعرفة. إذْ أن علم الاجتماع المعرفة ينطوي على دراسة ظواهر ومشكلات كثيرة من زوايا عقلية ، وقسماً منها من خلال زوايا حسية أو إدراكية أي ينتج لنا معرفة اجتماعية عقلية ومعرفة اجتماعية حسية هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن علم الاجتماع المعرفة يعالج الاعتلالات الاجتماعية والاضطرابات السياسية بالتأملات الفكرية ، والصور الاجتماعية النموذجية وكيفية تطبقها وكشف أسباب أخفاقها ، وتبيان سلبياتها على المجتمع الإنساني . (٥)

ثانياً : ـ النبوءة التاريخية مقابل الهندسة لاجتماعية :

((Historical Prophecy Versus Social Engineering))

إنّ التاريخية هي منهج للعلوم الاجتماعية يفترض أن التنبؤ التاريخي هو الهدف الأساسي ، ويفترض أن هذا الهدف يكون قابلاً للإنجاز من خلال اكتشاف الايقاعات Thythms أو الأنباط Pattern أو القوانين Laws أو الاتجاهات Trenelsالتي تشكل أساس تطور ((نشوء)) التاريخ . (٦) إذْ أن ما يدعون له أصحاب المذهب التاريخي أن تكون غاية العلوم الاجتماعية والتاريخ هو الكشف عن قانون المجتمع من أجل التنبؤ بمستقبله ، وهذه هي الدعوة المركزية للمذهب التاريخي والمتمثلة في تصور بأن المجتمع متنقل في سلسلة من (المراحل المتعاقبة) (٧) . (*) فالذي يدعيه المذهب التاريخي هو أن علم المجتمع ليس إلا علم التاريخ ، وليس المقصود بهذا هو التاريخ بالمعنى التقليدي ، الذي هو مجرد سجل للوقائع التاريخية ، فالتاريخ الذي يريد التاريخيون اعتباره هو وعلم الاجتماع شيئاً واحداً لا يلقي الضوء على الماضي فقط ، بل يلقي نظرة شاملة على المستقبل أيضاً ، فعلم التاريخ بهذا المعنى يدرس القوة المؤثرة بوجه عام وقوانين التطور الاجتماعي بوجه خاص .

كذلك في رأي التاريخيين أن على علماء الاجتماع محاولة الحصول على فكرة عامة ، أو عن اتجاهات عامة موسعة ، وكذلك من خلال إدراك العلل أو القوى المسببة للتغير ، وكذلك عليهم إلى جانب ذلك صياغة فرضيات التطور الاجتماعي من أجل أن يكيف البشر أنفسهم للتغيرات الوشيكة الوقوع من خلال استدلال التنبؤات من هذه القوانين . (٨) وهكذا فإن المؤمن بالتاريخ يتخيل علم الاجتماع بأنه اختصاص نظري وتجريبي تشكل قاعدته النظرية من خلال التسلسل الزمني لحقائق واسعة النطاق ، وعلى هذا الأساس فإن إصدار التكنهات التاريخية الواسعة النطاق واختبارها، هو مهمة تقع على علم الاجتماع مثلما تراها التاريخية .

أما الاتجاه العقلي فله آراء مخالفة لآراء المذهب التاريخي ، إذْ يرى أن طريقة التعميم تكون غير قابلة للتطبيق على العلم الاجتماعي وأن علينا أن لا نفترض صحة انتظامات الحياة الاجتماعية من خلال الزمان والمكان ، لأنها عادة ما تنطبق على مدة ثقافية أو تاريخية معينة . (٩) فقد أوضح كارل بوبر في كتابه المجتمع المفتوح وأعداؤه : ((أن المعرفة الاجتماعية لا تتبلور من الفراغ ، بل من خلال البيئة والظروف الاجتماعية وأن مؤثراتها لا تخضع للملاحظات لأنها انغرست وعاشت في ذوات الأفراد ومن ثم خرجت على شكل سلوك ومنطق ، فالملاحظة هي سلوك مترجم للمؤثرات البيئية الاجتماعية على ذوات الأفراد ... وحتى التطور التاريخي لا تتبلور مرة واحدة ولا بشكل واحد لروح الأمة الذي ينتج عدة أشكال وعدة عقائد متضادة تعيش داخل الأمة الواحدة ، والحالة نفسها مع الطبقات الاجتماعية إذ تتبلور عدة طبقات داخل المجتمع الواحد نتيجة التطور

التاريخي)) (١٠).كذلك محاولة أصحاب المذهب التاريخي ، جعل التنبؤ التاريخي هو الهدف الأساس لمنهج العلوم الاجتماعية ، قد نتج عن تأثرهم بالتنبؤات الفلكية البعيدة المدى ، وكذلك تأثرهم فيما بعد بنظرية ((دارون للتطور)) (١١) . (*) وهذا ناجم عن سوء فهم جسيم لمنهج العلم ، فهم تجاهلوا التمييز بين التنبؤ العلمي والنبؤة التاريخية ، فعلى الرغم من أن أصحاب المذهب التاريخي ينظرون إلى علم الفلك على أنه ليس علماً تجريبياً ، فهم يأكدون في الوقت نفسه ، بأنه قادر على (التنبؤ) بحركة الافلاك وعلى هذا الأساس يمكن أن يكون للتاريخ كذلك . (١٢)

وفي سياق ذلك يمكن القول: ((من إذْ أن نجاح التنبؤات البعيدة المدى في علم الفلك إنما يعتمد كل الاعتماد على ما للمجموعة الشمسية من طابع تكراري ، أو استاتيكي بالمعنى الذي يقصده عالم الاجتماع ـ أي أن نجاح التنبؤات معتمد في هذه الحالة على إهمالنا لكل عوارض التطور التاريخي)) . (١٣)

وعلى هذا الأساس لا يمكن اخضاع المذهب التاريخي للتجربة ولا يمكن بالتالي تكراره أو صياغة قانون تاريخي كالقوانين في العلوم الطبيعية ، وما تكرار الحوادث التاريخية إلا مثلاً من أمثلة النظريات الميتافيزيقية التي تبدو في العيان أنها تجريبية . (١٤) يمكن التأكيد على أهمية التنبؤات العلمية ، إلا أنه يمكن التمييز بين نوعين من التنبؤات ، ونتيجة لذلك هنالك نوعان من السلوك العملي المترتب عليهما ، ومن الامثلة على ذلك : ((نحن قد نتنبأ (أ) بحدوث إعصار شديد ، وهذا التنبؤ قد يكون له قيمة عملية كبرى ، من إذْ إنه قد يمكن الناس من اتخاذ أسباب الوقاية في الوقت المناسب ، وقد نتنبأ أيضاً (ب) بأن الملجأ الذي يعده هؤلاء الناس لوقاية أنفسهم سوف يصمد أمام الاعصار المقبل ، أن نبني بطريقة معينة كأن يقام في ناحيته الشمالية مثلاً حائط يستنده من الأسمنت المسلح)) . (١٥)

اذا يمكن التأكيد على اهمية هذين النوعين من التنبؤات ، على الرغم من اختلافهما ـ إذ أن كلاً منهما يحقق أحلاماً راودت الإنسانية منذ القدم ، ففي الحالة الأولى نحن نختبر عن حادث لا يمكننا القيام بشيء حياله ، ويطلق على مثل هذا التنبؤ إسم ((النبؤة)) ((Propnesy)) ، وتكمن قيمته العملية في كوننا محذرين من الحدث المتنبأ به ، لذا فإن باستطاعتنا أن نتجنبه أو مواجهته ، وربما كان بمساعدة التنبؤات من النوع الآخر . (١٦)

أما التنبؤات من النوع الثاني فيمكن وصفها بالتنبؤات التكنولوجية ، من إذْ أن التنبؤات التكنولوجية تتخذ من الأعمال الهندسية أساساً له ، وهي (بناءه) فهي تعلن صراحة عن الخطوات المفتوحة أمامنا أن أردنا تحقيق نتائج معينة، فالقسم الأكبر من الفيزياء تقريباً كل الفيزياء بصرف النظر عن الفلك والأنواء الجوية، تكون تنبؤات من مثل هذا النوع من التنبؤات التكنولوجية لو أخذنا الموضوع من وجهة نظر عملية . أن التمييز بين هذين النوعين من التنبؤ يقابله على وجهة التقريب ، تمييز آخر بين ما تلعبه التجربة من شأن يزيد أهمية أو ينقص، وبين المشاهدة التي تعتمد على مجرد الصبر والمثابرة ، فالعلوم التجريبية النموذجية تكون قادرة على التنبؤات التكنولوجية في حين أن العلوم القائمة في الأكثر على المشاهدة الغير التجريبية لا تمدنا إلا بالتنبؤات . (١٧)

إنّ الذي تريد ان نؤكده من كل هذا هو أن التاريخيين بما يتفق ، واعتقادهم في عدم إمكانية إجراء التجارب الاجتماعية وعدم فائدتها يحبذون النبؤة التاريخية ، ويعارضون في أن تكون الهندسية الاجتماعية هي الغاية العملية من العلوم الاجتماعية ،ونعني بذلك تخطيط النظم وإنشاءها بقصد العمل على إيقاف التطورات الاجتماعية أو التحكم فيها أو الإسراع بها.

أن سبيلنا إلى الهندسة الاجتماعية أو النبؤة التكنولوجية في العلوم الاجتماعية ، يتحقق من خلال ((الترقيع))الجزئي المقترن بالتحليل النقدي هو سبيلنا إلى النتائج العملية في العلوم الاجتماعية والطبيعية معاً ، إذْ أن تطور العلوم الاجتماعية كان إلى حد بعيد نتيجة لنقد المقترحات التي قصد بها الاصلاح الاجتماعي، أو بعبارة أدق ، كان تطورها نتيجة للمحاولات التي

أريد بها التحقق مما إذا كان يحتمل أن تؤدي بعض الأعمال الاقتصادية أو السياسية المعينة إلى النتيجة المرتقبة أو المرغوبة .(١٨) ((وهكذا فإن الطريقة الوحيدة أمام العلوم الاجتماعية هو أن تنسى كل شيء عن النزعات الكلية والنبوءات التاريخية واسعة النطاق، وأن تحيط بالمشاكل المطروحة كل واحد على حدة وذلك بالمنهج النقدي التكذيبي وعلى هذا الأساس كانت وظيفة العلوم الاجتماعية بهذه النظرة ستكون دراسة النتائج غير المقصودة بل غير مرغوبة للسلوك، بدلاً من التنبؤ بما سيجيء حتماً وهذه الوظيفة ستجعلها تضع التنبؤات المشروطة القابلة للتكذيب بدلاً من التنبؤات الواسعة النطاق غير القابلة له)) .(١٩)

أن الطبيعة التكذيبية للنظرية تعني الطبيعة المانعة ، التي تنفي حدوث حوادث ممكنة مما يعني أمكانية وضع القانون العلمي في صورة نافية، وهنا نوضح أن العلوم الاجتماعية بهذه الوظيفة ستستطيع التوصل إلى مثل هذه القوانين أو الفروض النامية ، ويمكن اعطاء أمثلة على هذا : ((ألا يمكنك أن تفرض الرسوم الكمركية على المنتجات الزراعية وتقلل في الوقت نفسه من تكاليف المعيشة)) ، ((ألا يمكن أن تحقق العمالة الكاملة دون أن يتسبب ذلك في حدوث التضخم)) أو ((ألا يمكنك أن تستجد إصلاحاً سياسياً دون أن يكون لذلك رجع من الآثار التي لا ترغب فيها من وجهة نظر الغايات التي تهدف إلى تحقيقها)) وغيرها من الأمثلة .(٢٠)

إنّ هذه الوظيفة كما تقول د. يمنى طريق الخولي : ((ستجعل التطبيق ـ أي التكنولوجيا يعقب المعرفة الاجتماعية كما يعقب المعرفة الطبيعية)) .(٢١)

ثالثاً : ـ المنهج العقلاني النقدي وحضوره في علم الاجتماع .

إنّ منهج البحث أو الطريقة التي يتبعها الباحث في تنظيم وإجراء بحوثه للحصول على النتائج التي يستهدف الوصول إليها ببحثه ، تؤثر تأثيراً مباشراً في النتائج والانتاج العلميين ، فبقدر ما يكون البحث قائماً على أساس منهج سليم ، مناسب للموضوع الذي يبحث فيه ، يكون البحث منتجاً وموصلاً إلى نتائج صحيحة سليمة من الناحية العلمية ، ومساعداً على اكتشاف القواعد والأسس العلمية وصياغتها .

لقد جرت العادة على أن مناهج العلوم الطبيعية تختلف بالكلية عن مناهج العلوم الاجتماعية كما تعرضها عادة الكتب المدرسية والعرف العلمي والأغلبية العظمى من علماء العلوم الطبيعية والاجتماعية ، ويعزوا هذا الرأي أو تلك النظرة لمجرد أن تلك الكتب وهذه الأعراف وأولئك العلماء على خطأ بالكلية بشأن مناهج العلوم الطبيعية ، و أننا طالما نظفر بتفهم صحيح ومنضبط لمناهج العلوم الطبيعية ، نستطيع أن نرى مساحة واسعة من التشارك بينها وبين مناهج العلوم الاجتماعية . (٢٢) إذ أن سوء الفهم الرئيس بشأن العلوم الطبيعية يكمن في الاعتقاد أن تلك العلوم وأولئك العلماء يبدأون من الملاحظة وجمع المعطيات أو الوقائع أو القياسات ، ومن ثم تسير قدماً نحو ربطها أو التضايف بينها ، وهكذا تصل تلك العلوم ـ بشكل ما ـ إلى التعميمات والنظريات وهذا ما يرفضه كارل ريمون بوبر ، إذ يؤكد بوبر إمكانية دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة عملية عن طريق منهج قابلية للاختبار والتكذيب ومن ثم القابلية للتقدم من خلال النقد العقلاني وذلك على أساس نظرية بوبر بوحدة المناهج .(٢٣)

فالعلوم الاجتماعية تماماً مثل العلوم الطبيعية ، يمكنها أن تستخدم منهج الحدوس الافتراضية ومحاولة تكذيبها عن طريق إخضاعها للاختبارات العلمية القاسية، أي منهج المحاولة والخطأ ، أي المنهج (النقدي) الأساسي لكل علوم ، ويؤكد بوبر أن ظواهر الحياة الاجتماعية تعطي الوقائع التجريبية التي تمثل مادة التكذيب التجريبي لتلك الفروض أو المحاولات ومن ثم يمكن أن تصبح علماً .(٢٤)

إنّ المعرفة العلمية عموماً عند بوبر لا تبدأ بجملة من الادراكات أو الملاحظات، وبجمع المعطيات والأفعال ، ولكنها تبدأ بطرح مشكلات حقيقية فلا وجود لمعرفة من دون مشاكل ولكنه في المقابل أيضاً لا وجود لمشاكل من دون معرفة مما

يعني أن المعرفة تبدأ بتوتر دائم بين حالتي العلم واللا علم ، فلا وجود لمشكلة من دون علم تماماً مثلما لا توجد مشكلة لا تقابلها حالة من اللا علم .(٢٥) ويرى بوبر أن كل معرفة تبدأ بجمع المعطيات بدلاً من أن تبدأ بمشكلة علمية تعد معرفة عبثية ، ويضرب بوبر مثلاً على ذلك إذْ يقول : ((وإني أتذكر مناسبة من حيث رأست ملتقى عرض فيه أحد العلماء المتميزين هذه النظرة ، قال إنّ العلم مجرد مقايسة وتضايفها في نتائج ، وفي المناقشة التي عقبت هذا ، تقدمت باقتراح أنه ربما كان علينا طلب منحة لمشروع قياس طول وعرض وسمك ووزن الكتب في مكتبة المتحف البريطاني ـ وهذا لكي ندرس التضايفات المحتملة بين هذه المقاييس ، وتنبأت بأننا قد نستطيع أن نجد تضايفات إيجابية قوية بين حاصل القياسات الثلاث الأولى والقياس الرابع ، لماذا يعد هذا المشروع عبثاً ؟ لأنه غير ذي أهمية لأنه يبدأ بجمع المعطيات بدلاً من أن تبدأ بمشكلة علمية ولأنه ليس هناك سبب لكي نعتقد أنه سوف يلقي ضوءاً على المشكلات العلمية الأكثر إلحاحاً في الوقت الراهن)) .(٢٦) وهكذا لا يبدأ عمل العلماء بجمع المعطيات ، بل بالانتقاء المرهف لمشكلة واعدة مشكلة ذات شأن ومغزى في سياق موقف المشكلات الحالي . لذلك فإن رأي بوبر هو أننا نستطيع أن نظفر بأفضل تفهم لمناهج العلوم الطبيعية ، وكذلك بالمثل المناهج العلوم الاجتماعية إذا سلمنا بأن العلم دائماً يبدأ بمشكلات وينتهي بمشكلات .(٢٧)

إذ أن منهج العلوم الاجتماعية ، مثله مثل منهج العلوم الفيزيائية والطبيعية ، يتمثل في وضع الحلول المقترحة للمشاكل موضع التجربة ، ولذلك تشترك كما يقول بوبر في اعتبار المشاكل منطلقاً لها ، فكل الحلول المقترحة يجري إخضاعها للنقد وعندما يثبت أن تجربة الحل غير قابلة للنقد الوقائعي ، فإن إلغاءها يحكم عدم علميتها ، يصبح مستلزماً حتى أن صيغت صياغة ظريفة ، وعندما تثبت هذه القابلية للنقد الوقائعي ، تسعى إلى رفضها ، لأن كل نقد يتمثل في محاولات للرفض ، أما إذا أثبتت محاولة الحل صموداً أمام النقد ، فنحن نقبلها قبولاً مؤقتاً .(٢٨)

وقد تبادر في الذهن بعد كل هذا سؤال مهم وهو كيف يمكن أن يكون ثمة أي مشكلات في غياب كل معرفة تسبق هذه المشكلات ؟ ان إجابة بوبر عن هذا السؤال هي : ((... أننا لا نبدأ أبداً بداية جديدة تماماً، من لا شيء ، أو بعقل بري تماماً إذا جاز هذا التعبير يتوقف نمو المعرفة دائماً على تصويب معرفة أسبق ، ومن الناحية التاريخية يبدأ العلم بمعرفة قبل علمية بأساطير قبل علمية وتوقعات قبل ـ علمية وهذه ـ بدورها ـ ليست لها ((بدايات) أنها تبدأ حينما تبدأ الحياة ، وحتى في مبتدأ الحياة ثمة مشاكل ـ مشاكل البقاء على قيد الحياة، وبالتالي لم يكن ثمة معرفة أولية منقوشة في عقل بريء ، أو عقل خام كصفحة بيضاء ، أو لوحة ملساء خالية ، ببساطة ليس هناك معرفة جديدة من دون أن تكون تعديلاً طرأ على نوع ما من معرفة أسبق ، نوع ما من التوقع ، وهذه التعديلات تحدث خصوصاً حينما تقع معرفة أسبق في مصاعب مثلا حينما يخيب توقع ما حينما تنشأ عنه مشكلة)) .(٢٩)

ويرى بوبر أننا نستطيع النظر إلى أي جزئية معينة من المعرفة وإلى أي نظرية علمية ، بوصفها حلاً مبدئياً لمشكلة أو لأخرى ، وهكذا ينشأ عنها مشكلات جديدة . (٣٠)

إنّ مصطلح النظرية التي استخدمها كارل بوبر هنا لا يعني بها المعرفة الراسخة التي لا تنمو ، إذْ أن بوبر استخدم مصطلح النظرية بمغزى واسع جداً ، مغزى يجعل هذا المصطلح مستوعباً للأساطير ، وكل أنواع التوقعات والتخمينات ، في ذلك يقول بوبر : ((. لم استخدمه أبداً بمغزى نظرية مثبتة راسخة أو مؤسسة ، لأنني لا أعتقد أن مثل هذه النظرية توجد، أن النظرية تبقى دائماً فرضية أو حدسية افتراضية تبقى دائماً عملاً من أعمال التخمين ولا توجد نظرية لا تكتنفها مشكلات)).(٣١) وهكذا فإن مفهوم ((النظرية)) عند كارل بوبر يعني بوصفها محاولة لحل مشكلة معينة .

إذاً بحكم ما أتضح من أن معرفتنا لا تتمثل إلا في اقتراحات حلول مؤقتة مما قد ينجز عنه أساساً إمكان اكتشاف الوقوع في خطأ ، أي الوقوع في الجهل ولذلك فإن الشكل الوحيد كما يقول بوبر لتبرير معرفتنا هو من جديد مؤقت ، أنه يتمثل

في النقد أو على وجه التحديد في أن محاولتنا لإيجاد الحلول تبدو إلى حد الآن معاندة أمام النقد الشديد ، فلا وجود لتبرير إيجابي أو بعبارة أخرى لا يمكن تصور حلول يمكن أن تتجاوز هذه الوضعية ، وكذلك أنه لا يمكن أيضاً أن تثبت الطابع الاحتمالي لحلولنا على وفق منطق حساب الاحتمالات .(٣٢)

وهكذا فإن محاولة تفهم مشكلة ما تبدأ عن طريق محاولة حلها وأن تفشل .

إذاً رأي بوبر لمنهج العلم لا تعدو أن تكون نظرة تضفي النسقية على منهج التعلم من أخطائنا . وهو منهج كما يقول بوبر بالمناقشة النقدية ، أو يمكن تلخيص مجمل منهج العلم عند كارل بوبر بما يأتي (٣٣) : -

١- ننتقي مشكلة ما ، ربما نعثر عليها مصادفة .

٢- نحاول حل مشكلة عن طريق اقتراح نظرية كحل مبدئي .

٣- من خلال المناقشة النقدية لنظرياتنا تنمو معرفتنا عن طريق حذف بعض أخطائنا ، وبهذه الطريقة نتعلم أن نتفهم مشكلاتنا ، ونظرياتنا والحاجة إلى حلول جديدة .

٤- المناقشة النقدية حتى لا فضل نظرياتنا تكشف دائماً عن مشكلات جديدة .

وهكذا يمكن أن نضع هذه الخطوات الأربع في كلمات أربع هي: (مشكلات ـ نظريات ـ انتقادات ـ مشكلات جديدة) ، ومنهج العلوم هذا ، ينطبق كذلك كما يقول بوبر على العلوم الاجتماعية وبوبر في نظرته هذه ينطلق من خلال نظرته إلى وحدة المناهج كما قلت سابقاً .

الخاتمة

لقد ادت محاكات العلوم الاجتماعية للمنهج الفيزيائي التجريبي الى ظهور النزعة التعالمية وهي صادرة عن فهم خاطئ للمناهج الطبيعية ، وهي متأثرة بالتفكير الكلي للنزعة . اذ ان المؤمن بالتاريخ يتخيل علم الاجتماع بأنه اختصاص نظري وتجريبي تشكل قاعدته النظرية من خلال التسلسل الزمني لحقائق واسعة النطاق وعلى هذا الاساس فأن اصرار التكهنات التأريخية الواسعة النطاق واختيارها ، هو مهمة تقع على علم الاجتماع مثل ما تراها التأريخية .

اذ ان سوء الفهم الرئيس بشأن العلوم الطبيعية يكمن في الاعتقاد ان تلك العلوم واولئك العلماء يبدؤون من الملاحظة وجمع المعطيات او الوقائع او القياسات ، ومن ثم تسير قدما نحو ربطها او التضايف بينها ، وهكذا تصل تلك العلوم بشكل سار الى التعميمات والنظريات وهذا ما يرفضه كارل بوبر اذ يؤكد امكانية دراسة الظواهر الاجتماعية دراسة عملية عن طريق منهج قابلية للاختبار والتكذيب ومن ثم القابلية للتقدم من خلال النقد العقلاني وذلك على اساس نظرية بوبر بوحدة المناهج

الهوامش

*يقصد بالدراسات الإنسانية أو الاجتماعية مجموعة العلوم التي تشمل علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي والاقتصاد والأنثربولوجيا والعلوم السياسية ، وتضم هذه المجموعة أحياناً الجغرافية والتاريخ وعلم الاتصال ، والمسألة الأساسية هي عما إذا كان بالإمكان إخضاع السلوك الإنساني للدراسة العلمية ، وإذا كان هناك خلط يحيط بمصطلح العلم نفسه ، يراجع : فرح ، د. محمد سعيد ، ما علم الاجتماع ، دار منشئة المعارف بالاسكندرية ط. بدون ، ص ١١٣ .

(**) علم الاجتماع : ـ دخل مصطلح علم الاجتماع Siciologie اللغة العلمية في منتصف القرن التاسع عشر على يد الفيلسوف الفرنسي اوغست كونت (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧) ، وقد صاغ كونت من كلمتين Sacietas اللاتينية وتعني مجتمع و Logos الاغريقية ، وتعني علم . وقد عني كونت بهذا المصطلح (العلم) الذي يدرس المجتمع البشري ، أو العلم الذي يدرس تركيب وديناميكية المجتمع ، يراجع : بوبوف س .ي ، نقد علم الاجتماع ((البرجوازية المعاصرة)) ، ترجمة نزار عيون السود ، تقديم د. طيب تيزيني ، سلسلة الأفكار ، دار دمشق للطباعة والنشر ، سوريا ، ط بدون ، ص١١ .

( ) Popper , Karl . Historicism (١٩٣٦) , Popper Selections Edited By David Miller, Princeton University Press Princeton , New Jersey – ١٩٨٥ – P. ٢٩٨

(٢) بوبوف ، س.ي ، نقد علم الاجتماع ، ترجمة نزار عيون السود ، ص٢٩ .

(*) ابن خلدون : هو عبد الرحمن ابن خلدون ولد في تونس عام ١٣٣٢ وتوفي عام ١٤٠٦ وهو مؤرخ فيلسوف علم الاجتماع ورجل دولة وسياسي عربي ، وهو المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع لم يصل من مؤلفاته إلا ((مقدمة كتاب العبر)) التي اشتهرت باسم ((مقدمة ابن خلدون))

(*) أوجست كونت : (١٧٩٨ - ١٨٥٧) فيلسوف فرنسي مؤسس للوضعية المنطقية ، مطلبه العلمي أن يقتصر العلم على وصف المظهر الخارجي للظواهر ، أهم مؤلفاته ، دروس في الفلسفة الوضعية ، يراجع : الموسوعة الفلسفية وضع لجنة من العلماء والأكاديميين السوفيت ، باشراف أ- روزنتال ، ب- يودين ، ترجمة سمير كرم ، دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٧٤ ، ص٣٦٦.

(٣) محمد ، د. محمد علي ، علم الاجتماع والمنهج العلمي ، دراسة في طرائق البحث وأساليبه ، سلسلة علم الاجتماع المعاصر - الكتاب الثلاثون ، دار المعرفة الجامعية مصر - الاسكندرية ، ط الثالثة ، ١٩٨٨ ، ص ١٧ - ١٨ .

(**) أن مفهوم النزعة التعالمية عند بوبر يقصد به الاعتقاد في سلطة منهج العلوم الطبيعية ونتائجها أو بمعنى آخر هي الاعتقاد في السلطة وفي الجرئة المتغطرسة للمعرفة : يراجع كارل بوبر ، بحثاً عن عالم أفضل ، ترجمة أحمد مستجير ، دار مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، القاهرة ، الطبعة بدون ، ص٦٠ .

(٤) بوبر ، كارل ، عقم المذهب التاريخي ، ترجمة عبد الحميد صبرة ، دار المعارف الاسكندرية ، مصر ، ط ١٩٥٩ ، ص١٣٣ .

(٥) عمر ، د. معن خليل ، علم اجتماع المعرفة ، دار مطبعة جامعة الموصل ، ١٩٩١ ، مقدمة الكتاب ص٧ .

(٦) . Popper, Karl – Historicism , (١٩٣٦) – Popper Selections Edited By David Miller – ١٩٨٥ . ٢٩٠ .

(*) ان دعوة المذهب التاريخي بأن المجتمع متنقل في سلسلة من المراحل المتعاقبة ، ليس جديداً ، من حيث يعد (ابن خلدون) المفسر الأول لحركة التاريخ لنظرية التعاقب الدوري للحضارات ، وقد سبق فيه فلاسفة الغرب ، وأنه لم يعتمد على مجرد روايات وسرد أخبار بل كان يفسر حركة المجتمع تفسيراً باطنياً كاملاً خلف أحداث التاريخ الظاهر ، وذلك من خلال أخذ ابن خلدون من الفلسفة نظرتها العقلية التعميمية ومن التاريخ واقعيته ، يراجع : صبحي ، د. أحمد محمود ، في فلسفة التاريخ ، دار مؤسسة الثقافة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٥ ،ص ١٣٧ . (٧) بوبر ، كارل ، عقم المذهب التاريخ ، ترجمة عبد الحميد صبرة ، ص ١٣٤ .

(٨) . Popper, Karl . Historicism , (١٩٣٦) Popper Selections P. ٢٩٥ .

(٩) . Ibid. P. ٢٩٠

(١٠) عمر ، د . معن خليل ، علم اجتماع المعرفة ، ص ٢٣٥ .

(*) دارون للتطور : - لقد تأثر المذهب التاريخي بنظرية دارون للتطور ، ولكن بوبر يتساءل هل للتطور التاريخي قانون ؟ وجواب بوبر عن ذلك بالنفي ، لأن البحث عن قانون للنظام الثابت في التطور لا يمكن أن يكون بحال من الأحوال في متناول المنهج العلمي ، والسبب في ذلك الاعتقاد هو الاعتقاد هو أن تطور الحياة على الأرض أو تطور المجتمع الإنساني هو عملية تاريخية فردة ، يراجع : بوبر، كارل ، عقم المذهب التاريخي ، ترجمة عبد الحميد صبرة ، ص١٣٥ .

(١١) بوبر ، كارل ، عقم المذهب التاريخي ، ترجمة عبد الحميد صبرة ، ص ١٣٤ .

(١٢) عواضة، د حنان علي ، النزعة العلمية في فلسفة كارل بوبر، بين التجربة والميتافيزيقا دار الهادي، بيروت– لبنان ، ط ٢٠٠٢ ، ص ١٦٦ .

(١٣) بوبر ، كارل ، عقم المذهب التاريخي ، ترجمة عبد الحميد صبرة ، ص ١٤١ .

(١٤) عواضة ، د. حنان علي ، النزعة العلمية في فلسفة كارل بوبر ، ص ١٦٧ .

(١٥) بوبر كارل ، عقم المذهب التاريخي ، ترجمة عبد الحميد صبره ، ص ٥٧ .

(١٦ ٢٩٣ Popper, Karl . Historicism , (١٩٣٦) Popper Selections P)

(١٧) بوبر كارل ، عقم المذهب التاريخي ، ترجمة عبد الحميد صبره ، ص ٥٨ .

(١٨) بوبر ، كارل ، عقم المذهب التاريخي ، ترجمة عبد الحميد صبرة ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

(١٩) الخولي ، د. يمنى طريف ، فلسفة كارل بوبر ، منهج العلم ، منطق العلم ، دار الهيئة المصرية للكتاب ، مصر ، ١٩٨٩ ، ص ٤٧٢ .

(٢٠) بوبر ، كارل ، عقم المذهب التاريخي ، ترجمة عبد الحميد صبرة ، ص ٨٢ ، ٨٣ .

(٢١) الخولي ، د. يمنى طريف ، فلسفة كارل بوبر ، منهج العلم - منطق العلم ، ص ٤٧٢.

(٢٢) بوبر ، كارل ، اسطورة الإطار في الدفاع عن العلم والعقلانية ، تحرير مارك أ- نوترنو ، ترجمة يمنى طريف الخولي ، سلسلة عالم المعرفة ، دار مطابع السياسة ، الكويت ، ٢٠٠٣ ، ص ١٨٤.

(٢٣) بوبر ، كارل ، منطق الكشف العلمي ، ترجمة ماهر عبد القادر ، ترجمة وتقديم د. ماهر عبد القادر محمد ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ص ٥٢ .

(٢٤) الخولي ، د. يمنى طريف ، فلسفة كارل بوبر ، ص ٤٧١ .

(٢٥) بوبر، كارل، منطق العلوم الاجتماعية، ترجمة المنصف وناس ، مجلة الثقافة الأجنبية ، العدد الأول ، دار شؤون الثقافية ، ١٩٨٨ ، ص ٥ .

(٢٦) بوبر ، كارل ، إسطورة الإطار ، ترجمة يمنى طريف الخولي ، ص١٨٤ .

(٢٧) بوبر ، كارل ، إسطورة الإطار ، ترجمة يمنى طريف الخولي ، ص ١٨٥ .

(٢٨) بوبر كارل ، منطق العلوم الاجتماعية ، ترجمة المنصف وناس ، ص ٥ -٦ .

(٢٩) بوبر ، كارل ، إسطورة الإطار ، ترجمة يمنى طريف الخولي ، ص ١٨٥ .

(٣٠) المصدر نفسه ، ص١٨٥ .

(٣١) المصدر نفسه ، ص ١٨٦.

(٣٢) بوبر ، كارل ، منطق العلوم الاجتماعية ، ترجمة المنصف وناس ، ص٦ .

(٣٣) بوبر ، كارل ، إسطورة الإطار ، ترجمة يمنى طريف الخولي ، ص١٨٨ .

المصادر العربية

بوبوف س .ي ، نقد علم الاجتماع ((البرجوازية المعاصرة)) ، ترجمة نزار عيون السود ، تقديم د. طيب تيزيني ، سلسلة الأفكار ، دار دمشق للطباعة والنشر ، سوريا ، ط بدون .

د. أحمد محمود صبحي ، في فلسفة التاريخ ، دار مؤسسة الثقافة الجامعية ، الاسكندرية ، ١٩٧٥.

د. حنان علي عواضة ، النزعة العلمية في فلسفة كارل بوبر ، بين التجربة والميتافيزيقا ، دار الهادي ، بيروت – لبنان ، ط ٢٠٠٢ .

د. محمد سعيد فرح ، ما علم الاجتماع ، دار منشئة المعارف بالاسكندرية ط. بدون .

د. محمد علي محمد ، علم الاجتماع والمنهج العلمي ، دراسة في طرائق البحث وأساليبه ، سلسلة علم الاجتماع المعاصر ـ الكتاب الثلاثون ، دار المعرفة الجامعية مصر ـ الاسكندرية ، ط الثالثة ، ١٩٨٨ .

د. معن خليل عمر ، علم اجتماع المعرفة ، دار مطبعة جامعة الموصل ، ١٩٩١ .

د. يمنى طريف الخولي ، فلسفة كارل بوبر ، منهج العلم ، منطق العلم ، دار الهيئة المصرية للكتاب ، مصر ، ١٩٨٩.

كارل بوبر، اسطورة الإطار في الدفاع عن العلم والعقلانية ، تحرير مارك أ- نوترنو، ترجمة يمنى طريف الخولي ، سلسلة عالم المعرفة ، دار مطابع السياسة،الكويت ، ٢٠٠٣ .

كارل بوبر ، بحثاً عن عالم أفضل ، ترجمة أحمد مستجير ، دار مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مصر ، القاهرة ، الطبعة بدون .

كارل بوبر ، منطق العلوم الاجتماعية ، ترجمة المنصف وناس ، مجلة الثقافة الأجنبية ، العدد الأول ، دار شؤون الثقافية ، ١٩٨٨ .

كارل بوبر ، منطق الكشف العلمي ، ترجمة ماهر عبد القادر ، ترجمة وتقديم د. ماهر عبد القادر محمد ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت .

كارل بوبر، عقم المذهب التاريخي ، ترجمة عبد الحميد صبرة ، دار المعارف الاسكندرية ، مصر ، ط ١٩٥٩.

المعاجم الفلسفية

الموسوعة الفلسفية وضع لجنة من العلماء والأكاديميين السوفيت ، باشراف أ- روزنتال ، ب- يودين ، ترجمة سمير كرم ، دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الاولى ١٩٧٤ .

المصادر الانكليزية

١ Popper , Karl . Historicism (١٩٣٦) , Popper Selections Edited By David Miller, Princeton University Press Princeton , New Jersey – ١٩٨٥.